

الخطاب الصوفي وممارسة الاختلاف

د/ دراجي سعيدي
أستاذ محاضر أ
بالمدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

Résumé :

Le soufisme a exercé la difference entre lui même et la culture savante en particulier l'institution religieuse , en islame qui a exercé son effet sur l'entité , sur l'homme et ses sentiments , car l'experience spirituelle à été immobilisé par les jugements de la législation islamique autrement dit la compréhension des savants musulmans ,la connaissance de la législation c'est divisé en deux parties :

- une connaissance consernant les obligations de la religion ,
- comme les cultes et transactions et une autre connaissance qui s'interesse aux état des âmes se définissant comme étant le soufisme qui représent l'esprit de la religion d'un point de la vue des savants en question et sa vérité .

الكلمات المفتاحية : الخطاب الصوفي - الحقيقة والشريعة - الاختلاف - الثقافة

إذن ولا حرج في أن يخالف أحدنا الآخر أو يصوبه لما هو أرقى وأفضل ، ومن ذا الذي يدعي العصمة ؟
وقد عرفت الصوفية محنا شتى ، بسبب اختلافهم مع المنظومة الدينية الإسلامية ومع السلطة التي تتعاطى معها ، والتي وصلت إلى حد الإلغاء فكريا ووجودا ، وكان من أهم مواطن الاختلاف : مسألة الظاهر والباطن في فهم النص القرآني وكذلك في وحدة الأديان وتواتر النبوة والجبر والاختيار وغيرها من المسائل .

يهدف هذا البحث إلى تبيان أن الاختلاف بين الناس لا ينشأ فقط من التنوع في العرق أو اللون أو اللغة أو الدين أو الثقافة ، وما ينجم عن ذلك من تضارب في الآراء والفهوم ، بل يقع أيضا نتيجة سنة التدافع بينهم وبين غيرهم من الكائنات التي بدونها تفقد الحياة معناها ومغزاها

وحياتنا الفكرية متوقفة دوما على طلب الحقيقة - ضالته - والسعي إلى إدراكها والعمل بها ، فلا مانع

قائما إلى يوم الفصل بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾¹ وآيات أخرى ، التي تتحدث عن اختلاف الألسن واختلاف الليل والنهار وعدم اختلاف القرآن الكريم أي عدم تناقضه لأنه من عند الله .

فواقع الحياة يدل على أن الاختلاف مستمر وقائم لا سبيل إلى حسمه والفصل فيه ﴿... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾² فصلاحيها وبقائها مشروط بسنة التدافع واختلاف الناس فيما بينهم .

أولاً : الصوفي ومواطن الاختلاف مع الثقافة العربية الإسلامية :

تكتسي عملية الاستشهاد بالنص المؤسس أهمية كبرى في عملية الاندماج الديني والروحي للتصوف في المنظومة الإسلامية ، حيث عمل المتصوفة باكرا على التأكيد أن نهجهم ومذهبهم إنما يقومان على الشريعة الإسلامية ، بل يمكن اعتبارهما كنه هذه الشريعة وجوهرها ، لذا سعوا إلى إحكام الربط مع المرجعية النصية من قرآن وحديث .

وظل الخطاب الصوفي فترة طويلة على الهامش بسبب تمرده على المعايير الشرعية عقديا وجماليا ، ولذلك تم إقصاؤه ومحاكمته ، لكنه ظل يمارس حقه في الاختلاف ، من حيث هو معطى معرفي مفارق للمعطى المعرفي الرسمي (المركزي) رغم أنه يقف على الأرضية نفسها (الأصول من كتاب وسنة) إلا أن القراءات تتباين بتباين آليات الفهم والإدراك .

وبقي الخطاب الرسمي يحاكم كل خطاب يخالفه أو يغيّره ، ويمارس حقه في الإقصاء أو التهميش ، بوصف الآخر مناقضا للأطر المعرفية المتعارف عليها ،

وواجه الصوفية في العصر الحديث والمعاصر مخططا رهيبا ، حيث رأى مؤلّهُ العقل أن التصوف أوهام وخيالات بل خرافات ودروشة لا تمت بصلة إلى المعقول والواقع .

وحاول خصوم التصوف محاربة فكرة المقدس - التي يوليها الصوفية عناية كبيرة - بوصفها إلغاء للإنسان ومصادرة حقه في صناعة وجوده ، فهو في نظرهم يكرس وجودا على حساب الآخر .

ومن المؤسف أن تاريخنا العربي الإسلامي حافل بالوقائع المؤلمة جراء ممارسة الاختلاف ، وكذلك حياتنا المعاصرة التي تشهد ممارسات متطرفة وعنيفة تجاه الآخر أيا كان .

وقد واجه الصوفية العديد من الانتقادات تمثلت في جبهتين :

جبهة داخلية (النقد الذاتي) : يعترف الصوفية أن خطابهم وصل في بعض مراحله إلى مأزق التأويل وخاصة للنص القرآني ، وإلى التهافت على استغلال الدين لقضاء مآرب تضر بسمعة التصوف ، وأن القيم الروحية التي ينشدونها تكاد تغتال .

جبهة خارجية (الآخر) : ترى أن الخطاب الصوفي ينفى العقل ويعتمد على المعرفة الذوقية اللدنية ، وأدى ذلك إلى العزوف عن العلم والتعلم ، والبعض وصل به الأمر إلى التحلل من الواجبات الشرعية ، اعتقادا منه أنها تعني عامة الناس لا خاصتهم ، كما أن بعض الممارسات كالخلوة واعتزال المجتمع وضعهم في موقف سلبي من الحياة والواقع .

وقد تشترك المجتمعات في بعض الخصائص ولكن تظل بينهم مساحة من الاختلاف ترجع إلى التباين في الفهم والرأي ، وقد عد الإسلام التنوع الإنساني واختلاف الناس فيما بينهم مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية وآية من آياتها ، واعتبره أمرا فطريا وطبيعيا له علاقة وطيدة بالفروق الفردية ، بل جعله حقا أبديا

يراعي أحوال القلوب ويسمى التصوف ، الذي يمثل روح الدين الإسلامي وحقيقته في نظر الصوفية . هذه الثنائية الشريعة/الحقيقة اتخذت أبعاداً عدة ، وتفرعت عنها مسائل أخرى منها :

1- مسألة الظاهر /الباطن :

استخدم الصوفية هذين المفهومين ، ليتمكنوا بذلك من البقاء ضمن هذا الواقع والثورة عليه في وقت واحد ، وتعاملوا مع النص المقدس بدعوى أنه يحمل وجهين من المعاني : فهناك الوجه الظاهر الموجه إلى عامة المسلمين ، والوجه الباطن الموجه إلى الخاصة ومنهم الصوفية ، وزعموا أن الوقوف على ظاهر النص حجاب يمنع من الوصول إلى حقائق الأمور (فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن فكر وظن ، وذلك لأن الأفكار محل الغلط والوهم)⁵

ويضع هذا المفهوم الخاص للمعرفة عند الصوفية عدة إشكالات :

1- خرق مبدأ الوسيط الذي تتضمنه الشريعة ، بما في ذلك الوحي والنبوة ، فهم لا يحتاجون إليهما ما داموا يتلقون معرفتهم مباشرة من الخالق ، وقدوتهم في ذلك الرجل الصالح (سيدنا الخضر وسيدنا موسى عليهما السلام ، كما تنص عليه سورة الكهف والسيرة النبوية .

2- بأخذهم المباشر يضعون أنفسهم في مستوى أعلى من مستوى الأنبياء ، بحجة حاجة هؤلاء إلى وسيط بينهم وبين الله ، ولعل هذا ما دفع أبا يزيد إلى القول : (تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد)⁶

ورأوا أن المضمون الظاهري هو ما تؤديه الدلالات اللغوية والبيانية المباشرة ، ويسمى بالشريعة . أما المضمون الباطني - في نظرهم - فلا يتم إلا عن طريق الكشف ، ويسمى بالحقيقة ، فإذا كشفت الحقيقة سقطت الشريعة ، وهذا ما يفسر عدم اهتمام البعض

وكأنهم لم يدركوا أن الأنا لا وجود لها إلا من خلال الآخر الذي به تكون المغيرة والاختلاف ، حيث تتمايز الهويات من خلال مفارقة الأنا للآخر ، ومن الواضح أن الحاجة إلى الآخر هي من الضروريات الأولى التي تفرض نفسها على الفرد ، فكوني في حاجة إلى الآخر ، معناه أن هذا الآخر شبيه بطبيعتي ، وأن له الكيان نفسه والشعور نفسه ، بل له الحقوق والواجبات نفسها ، وهو إقرار بأن الآخر أنا آخر ، عالماً يمكننا يدعوني لاكتشافه ومعرفته ولهذا قيل : (لكي تعرف الآخر لا بد أن تراه من حيث هو لا من حيث أنت)³

اعترافاً بالأنا واعترافاً بالآخر في الآن نفسه ، (ذلك أنه لا تستقيم هوية للأنا من دون الآخر)⁴ فالآخر ليس بالضرورة من يغيرنا ذاتاً وجنساً أو عقيدة أو وطناً أو صاحب العداء التاريخي ، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها فيحارب بعضها البعض الآخر ، فقد كان الشاعر يتحدث عن الغزل والخمرة وغيرها من الموضوعات على أنه تقليد في لا ضير منه ، ولا يدل بالضرورة على أنه سلوك خلقي ، وإلا كيف نحاول أن نبرئ حسان بن ثابت من وصف الخمر في مطلع بعض قصائده بعد إسلامه .

وقد بدأت التجربة الصوفية في الإسلام بالسعي إلى الوجه الظاهر للشريعة الذي صار لا يهز كيان الإنسان، ولا يحرك شعوره وإحساسه ، لأن التجربة الروحية للإسلام قيدت بأحكام الشريعة أي بفهم الفقهاء ، إذ يعتقد الصوفية أن الفقهاء قد أفسدوا الدين ، وحولوه إلى أشكال ورسوم ، معتمدين على ظاهر العلم دون النفوذ إلى باطنه ، حيث المقاصد والنيات وخطرات القلوب وسرائر النفوس ، وبذلك عاجلوا القشور دون اللباب ، فكان التصوف استكمالاً لقصور علماء الرسوم .

وانقسم العلم بالشريعة إلى قسمين : علم يجري على الجوارح كشعائر العبادات والمعاملات ، وعلم

(الكامل) على أن (كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده، فقد يكون العلم مؤيدا من الكتاب والسنة، ولكن قلة استعدادك منعتك من فهمه، فلن تستطيع أن تتناوله بهمتتك من محله، فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة)

2- وحدة الوجود :

تشتهر وحدة الوجود وتكتمل مع محي الدين بن عربي، والتي يمكن تلخيصها بالقول: إنها تنفي التعدد في الوجود، فليس في الأمر وجودان (الله - العالم) بل وجود واحد، وحقيقة واحدة. هما وجود الله وحقيقته، والباقي كله تجليات لهذا الوجود.

فغير الصوفية التفكير من الإله المفارق إلى الإنسان الكبير (الكامل) ومن لا إله إلا الله إلى لا موجود إلا الله، وترتبط نظرية (الإنسان الكامل) ارتباطا وثيقا بنظرية وحدة الوجود، ففيها أن الإنسان أصل وجود العالم، ومبدأ صلة العالم بالله.

فالإنسان الكامل هو الجانب الإلهي الصرف من الإنسان أو الجانب الإنساني الوجودي من الله. قال ابن عربي: (لولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود، كما أن لولا تلك الحقائق المعقولة ما ظهر حكم في الموجودات العينية)¹⁰

وقد تجلّى ذلك في الحقيقة الحمديّة أو النور الحمدي، وهي حقيقة روحية (معنوية جامعة قديمة كانت قبل العوالم كلها غيبا وشهادة) لا مادية سارية في الكون بأسره من أعلاه إلى أدناه، جاء في حديث نبوي طويل قال الرسول (ص): (يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره)¹¹

ويتبين من هذا أن موضوع وحدة الوجود عند ابن عربي لا تخرج عن كونها وحدة شهود، وهي حالة ذوقية صرفة، لا تتجاوز النظر العقلي، فلا يرى في الوجود إلا من له الوجود الحقيقي وهو الله تعالى، فلا

من الصوفية بالواجبات الدينية وإهمالها، واعتمدوا في القول بالتأويل - إلى حد المبالغة - على مقولات مستمدة من نصوص الكتاب والسنة.

ومن بداية الفكر الإسلامي كان اللجوء إلى التأويل حيلة العقل العربي في فهمه لمعقولية النص القرآني والنبوي، فلا يوجد طريق واحد للفهم، بل طرق متعددة ومختلفة تبعا لطبع الناس واستعدادهم وتعليمهم.

(إذا كانت العامة لا قدرة لهم على تصور الأشياء كما هي في نفسها، بل يتصورونها بمثيالاتها، فقد ضربت لهم الشريعة الأمثال على تلك الأشياء، فالظاهر هو هذه الأمثال، والباطن هو المعاني الغامضة التي لا تتجلي إلا لأهل البرهان، بالتأويل الذي هو الخروج بالدلالة من الظاهر إلى الباطن)⁷

ولهذا فالصوفية لا يدعون أنهم يأتون بشئ جديد في الدين، وإنما يدعون أن لهم فهوما جديدة في الدين، ومن المتوقع أن يعارضهم من استحلى التقليد، ومن ضاق أفق فهمه عن تذوق هذه المقاربات، أولئك الذين يعذرهم الصوفية عموما، ويلمح إليهم الأمير عبد القادر الجزائري بقوله: (... ما قيدت (هذه الأفهام) لمن يقول هذا إفك قدسم وأساطير الأولين، ويحجر على الله تعالى من علماء الرسم القانعين من العلم بالاسم، فإننا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم، فإذا أظهروا لنا ملاما وخصاما تلونا (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)⁸

إنهم يرون أن علم المعارف هذا إذا لم يدركه علماء الرسوم المتمسكون بظاهر الكتاب والسنة، فذلك لا يعني أبدا عدم حجّيته، ولا يمكن أن يطعن من ثم في مشروعيته، لأن الحلقة الناقصة في سلسلة اكتمال الفهم لديهم، قد توجد في قلة استعدادهم وفي تبدل قرائحهم عن أن يأخذوا ذلك من القرآن والحديث، وقد نص عبد الكريم الجيلي في كتابه (الإنسان

وجود حقيقي لا يقبل التبديل إلا الله ، فما في الوجود المحقق إلا الله وما سواه فهو الوجود الخيالي :

إِنَّمَا الْكَوْنُ خِيَالٌ وهو حقٌّ في الحقيقة والذي يفهم هذا حازَ أسرارَ الطريقة¹² إن الأنا والآخر إنما هما حال واحد يظهر اثنين أو أكثر في لحظة تجليه ، أي الإفصاح عن نفسه . وقد وضع ابن عربي يده على ذلك ، حيث عبر عنه في لحظتيه الإثنتين : الوجودية - والمعرفة الاستكشافية فأعلن ما يلي بوضوح متسق :

يا خالق الأشياء في نفسه

أَنْتَ لَمَّا تَخْلُقُهُ جَامِعٌ
تَخْلُقُ مَا لَا يَنْتَهِي كَوْنُهُ

لَكَ فَأَنْتَ الضِّيقُ الْوَاسِعُ¹³

3- حقيقة الأديان :

كان الحديث عن هذه المسألة أقل من غيرها في الموضوعات الصوفية الأخرى ، وقد يعود السبب في ذلك إلى حساسية الفكرة نفسها ، التي توحى في ظاهرها بالقول بوحدة الأديان ، والتي تصطدم مع النص المحكم في الآية القرآنية الكريمة (إن الدين عند الله الإسلام)¹⁴

فلا يعرف هذا على الحقيقة إلا العارف الكامل يعرفه في كل صورة يتجلى بها ، وفي كل صورة ينزل فيها ، وغير العارف لا يعرفه إلا في صورة معتقده ، وينكره إذا تجلى له في غيرها ، كما لم يزل يربط نفسه على اعتقاده فيه ، وينكر اعتقاد غيره . يقول ابن عربي في هذا :

عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَهِ عَقَائِدًا

وَأَنَا شَهِدْتُ جَمِيعَ مَا اعْتَقَدُوهُ

لَمَّا بَدَأَ صَوْرًا لَهُمْ مَتَحَوَّلًا

قَالُوا بِمَا شَهِدُوا وَمَا بِحُدُودِهِ¹⁵

إن القول بوحدة الأديان كان قصد حركة (إخوان الصفا وخلان الوفا) الذين اعتقدوا أن ما يؤمنون به لا يختلف عما يراه الآخرون ، وبالتالي يلتقي الجميع على هدف واحد ، بمحاولة التوفيق والمزج بينها ، فأشكال الشعائر وضروبها ليست إلا وسائل يجب تجاوزها إلى الحقيقة الإلهية التي تنطوي عليها ، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

فرعاً لغزلانٍ وديرٍ لرهبانٍ

وبيتٍ لأوثانٍ وكعبة طائف

وألواح توراةٍ ومصحف قرآن

أدينُ بدين الحبِّ أني توجَّهْتُ

ركابته فالحبُّ ديني وإيماني¹⁶

وقالوا إن الدين واحد ، لأن هدف الأنبياء واحد ، وأما ما تعدد واختلف فشرائع أولئك الأنبياء دين الأنبياء واحد ، ومسلكتهم جميعاً مسلك واحد ، ومقصدهم مقصد واحد وغرض واحد ، وإن اختلفت شرائعهم . على أن الأنبياء يراعون في تعليم الدين حالة الجماعات وظروف البيئة والزمان ، فينوعون الأوامر والنواهي ... وإن شأن الأنبياء في ذلك شأن الطبيب الرفيق الذي يبدل الأدوية مع الأشخاص والأمراض وينوع العلاج مع الفصول والحالات بل يراعي تفاوت العقول

4- تواتر النبوة :

النبوة من وجهة النظر الإسلامية اجتناء واصطفاء من الله تعالى ، فيختار من عباده من يشاء ويبعثهم لهداية الناس وإصلاحهم ، فهي ليست مرتبة تكتسب أو مقام ينال بالجهد والتطهر ، ومع ذلك فقد ظهرت دعوة من بعض الدوائر الصوفية ، يزعم أصحابها أن النبوة فيض دائم ، وأنها سلسلة لا تنقطع ، وتكون كل حلقة منها أبهى من التي سبقتها ، يقول جولد تسيهر : (وهذه

وهذا يعني فناء الصوفي عن إرادته ولقائه بإرادة الله ، وهنا موطن الخلاف مع جمهور المسلمين ، فجميع المشيئيات محو في وجود مشيئتها وهو الله ، وأن العبد لا فعل له على الحقيقة ، وإنما العمل ينسب حقيقة إلى الله تعالى ، فأعمال العبد على اختلافها ليست منه بإرادته ، وإنما هي من الله بمحض فضله ومنته .

وإذا كان الشطح في نصوص الصوفية هو فعل من أفعال الحرية بكل تأكيد ، فكيف يقبل الصوفي نوااميس الجبرية التي تقيده وتحد من حريته ؟
ثانياً : الصوفية ومواطن الاختلاف مع الثقافة المعاصرة :

1- تأليه العقل :

لقد بددت أشعة العلم الحديث كل ريبة تساور الناس فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم بأن هناك عالماً غيبياً وراء هذا العالم المشاهد ، وأن عالم الغيب أدق وأعظم من عالم الشهادة ، وأن أكثر المخترعات الحديثة تحجب وراءها السر الخفي الذي عجز العلم عن إدراك كنهه ، وإن لاحظ آثاره ومظاهره .

والدين أيضاً حمل معه شعوراً قوياً بعجز العقل عن الإحاطة بكل شيء ، وعجزه بالخصوص عن الإحاطة بالله ، وحمل معه ما يبطل النتائج الحتمية التي يركن العقل أحياناً إلى إطلاقها ، فأبان الدين بطلان قانون السببية أحياناً ، وظهر من التجارب أن هناك مظاهر لا يعرف العقل ماهي ؟ ، كما أن العقل لا يعرف كيف يعقل ولا كيف يفهم ..؟

فللعقل دوره وحسناته ، ولكن له أيضاً عثراته وسلبياته في تناول الحقيقة الدينية ، فقد رأى الصوفية أنه بقدر ما ينغمس المرء في المحسوسات بقدر ما تنحدر قدرته العقلية نحو الوهم والخيال الباطل .

آفة العقل إذا من وجهة نظر الصوفية أنه يحاول دائماً أن يعقلن الوقائع والأحداث والمظاهر ، يريد

النظرية ترجع في أصولها إلى الغنوصية المسيحية ، أي الفكرة التي ترى أنه ليس ثمة غير نبي صادق واحد ، هو إنسان خلقه الله وزوده بروح القدس ، يظهر خلال عصور العالم منذ البدء بأسماء وصور متغيرة حتى يشملها الله برحمته ، فيبلغ الراحة الأبدية ، بعد انقضاء الأعصر التي حددت له ، كي يؤدي الرسالة التي أخذ على عاتقه أداءها ¹⁷

وزعم بعض الصوفية المتفلسفين (أن النبوة صفة يمكن للإنسان اكتسابها والوصول إليها ، عن طريق المجاهدة والرياضة وتصفية القلب) ¹⁸
٥- مسألة الجبر / الاختيار :

وقع افتراق مبكر بين الصوفية والمعتزلة ونفور قوي ، فالأولون يحجمون عن اقتحام الغيوب بواسطة العقل ، والآخرين يحكمونه في ذلك الفضاء المتعالي ، كما كان الخلاف بين منهج الكشف (أداته القلب) ومنهج النظر (أداته العقل) ، ومن المواضيع العويصة الشائكة التي شغلت الطرفين ، موضوع الفعل الإنساني ومدى ارتباطه بالفعل الإلهي .

وكان الصوفية من أشد الناس إنكاراً للجبر ، ويحملون الإنسان كامل المسؤولية في فعله ، ولكنهم بالمقابل يتشوفون إلى إفناء إرادتهم في إرادة الله ، ويتبرؤون من كل حول وقوة ، وكل ما تدعيه النفس استقلالاً ، فجلال الدين الرومي يؤكد أن أعمال الإنسان صادرة عنه باختياره على الرغم من أنها أثر من آثار فعل الله ، فليس له أن يحمل الله تبعه أعماله ، غير أن الحرية الصوفية الحقيقية هي حرية العبد عن أن يستترقه أي شيء ، وأن لا يتعدى بإرادته حب ربه حتى تفنى إرادته في إرادة ربه ، فهو يؤمن باتحاد الإرادات لا باتحاد الذوات ¹⁹

ووقف الصوفية من هذه المسألة موقفاً مخالفاً لموقف المعتزلة ، وقالوا بالجبر على نحو لا اضطراب فيه ، ذلك أن الإنسان لا إرادة له بالقياس إلى إرادة الله ،

شريك له ، فإنه يصبح في هذه الحالة أقرب إلى إبليس بصورته الكريهة الرهيبة ، أو إلى صورة المتني المدعي . وقد يحل الساحر أو النبي أو الإله أو أكثر من واحد منهم في شخص الولي ، حتى تفيض بركته وكراماته على الناس ، ولابد أن يطلب ، والطلب يفترض الأمل ، والبركة أو الكرامة ينبغي أن تظل شبيهة بلغز أو بسر ، حيث يتداخل في البركة والكرامة الحسي بالمعقول والطبيعي باللاطبيعي والخارق بالعادي.²¹

الولي يرعى أتباعه ومحبيه ليحقق لهم الأمن والحماية ، كما تساعدهم بركته على رفع الصعوبات والحدود ، ويتمتعوا بثمار بركته ، ويلعب العجيب والغريب دورا هاما في تعليق العالم الاعتيادي ، لأنه يحل الجميل والفاتن محل ما أبلته العادة والمألوف .

يجارب الفكر الحديث المقدس بوصفه طريقا إلى إلغاء الإنسان ، ومصادرة حقه في صناعة وجوده ، والتصرف فيه بحرية ، فالمقدس في نظره يكرس وجودا على حساب وجود غيره ، ويضع كيانا عقبة في طريق كيانه آخر ، ويؤسس لمنظومة معرفية بقصد التغطية على غيرها واقتلاعها من الأساس ، رغم أن عصرنا يضع المفاهيم جميعا على قدم سواء ، وأننا استدبرنا عصور المركزية والهرجسية والأبوية والأحادية ... إلى عصر التعددية المطلقة التي تتجاوز ثبات المفاهيم ، وبهذا الفهم يلغى المقدس لأنه يكرس السكونية ، ويوقف عجلة التطور التي هي سنة كونية .

ثالثاً : نقد الخطاب الصوفي :

بالرغم من أن التصوف فلسفة ونظرة إلى الحياة ورؤية للوجود ، ونوع من التعامل مع الحقائق الكونية بشكل عام ومع القضايا الإنسانية بشكل خاص . فعلى المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية يمثل التصوف موقفا بامتياز ، إنه موقف رافض للمظاهر السلبية في كل مجالات الحياة التي

العقل بذلك أن ينزع زمام الأمر من يد القدرة الأزلية ، ليحمله تحت تصرفه ، في الوقت الذي تريد منه القدرة الأزلية أن يأتيها خاضعا منكسرا ، إن المعرفة الحققة والقوية هي تلك التي تحصل للإنسان بالضرورة بعد فراقه للحياة (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)²⁰

فلا يطلب اليوم من الخطاب الصوفي الخضوع لمقولات المنظومة العقلية الحديثة التي لم تلب حاجة الإنسان المعاصر إلى الإصغاء لجوهر إنسانيته المحارب والمتشظي ، مثلما يحتاج إلى ما يسكن من تيهانه الأنطولوجي ، حيث يجد أن كثيرا من المعارف العالقة بخطاب التعالي تجاوزها عقله ولفظها في متحف الخرافات والحكايات التاريخية البائدة .

إذ فقد تلك القدرة الإدهاشية للعقل ذاته ، أي فقد جذوة تحدي العقل حين فقد القدرة على تقديم ذاته كأفق يفصح حدود العقل في اللحظة المعاصرة ، ويلبي بطرقه المخصصة ما لا تستبطنه أدوات العقل السائرة والشغالة .

2. محاربة المقدس :

ظهرت منذ العهد الأموي حركات دينية سياسية متصارعة بوسائل دينية ، بدل الوسائل السياسية المكشوفة ، حيث يكون الخصم أو العدو هو الشيطان .. ولأن امتلاك هذه القوة الخالصة يستدعي تجريد غيرهم منها ، لكن الصوفية وبسبب ظهورهم المتأخر نسبيا بالمقارنة مع أغلب الفرق الأخرى ، كانوا في حاجة إلى وسائل غير تلك التي أعطت القوة ولا تزال لخصومهم ، فكانت الوسيلة هي الحدس أو الذوق ضد النقل والعقل ، إلى حد أن أصبحت معه تلك الأداة وسيلة سحرية فتاكة لا تراعي أية حدود ، إذ بالإمكان أن يصير الولي نبيا أو إله ، ولأنه لا يمكن أن يقبل على تلك الصورة في مجتمع بنيته نبي واحد خاتم الأنبياء ، وإله واحد لا

في قراءتها ، بحيث يرى منها غير المعتاد ، وهذه القراءة الاستبطانية تجعل المعاني الذاتية تنتقل إلى النص ، وهي معاني تتغير وتبدل وتتحول مع كل قراءة جديدة للنص ، كما أن هذا الانتقال يحيل إلى نوع من التطابق بين الذات القارئة والنص المقروء ، بحيث تتحول الذات نفسها إلى صورة من صور النص كلما تواترت القراءة ، من خلال انفعال الذات بالنص في عملية القراءة²³

2-1 إشكالية ضيق اللغة :

يدعي الصوفية منذ القدم بأن التجربة الصوفية التي يحيونها ، لا تتسع لها الألفاظ اللغوية المتواضع عليها ، ومن ثم فهم يشكون دائما من ضيق العبارة ، ومن الأمثال السائرة منذ فجر التصوف قولهم : (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة) بتعبير النفري والمشكلة هنا أن الصوفي يشعر بأن اللغة قاصرة وغير كافية للتعبير عن تجربته الفريدة ، ولكنه في الوقت نفسه يرى أنه لا مناص له منها كوسيلة لنقل تجاربه وإشراقاته إلى الآخرين ، ولهذا نراه عندما يستخدمها يعلن أنها لا تقول ما يرغب في قوله ، وأن جميع مفردات معجمه عاجزة عن أن تقوم بذلك ، ومن ثم فإن تجربته مما لا يمكن وصفها أو التعبير عنها. فكيف حل الصوفية هذه الإشكالية ؟

إن الصوفي أثناء الكتابة يقوم بعملية تكثيف للمعنى ، أو إعطاء اللغة قوة للتعبير عما هو مسكوت عنه ، بالكلام الصريح ف(النص الصوفي لا ينقل حياتية التجربة الصوفية ككل ، بل يقوم بعملية استنساخ للصورة وبثها من خلال اللغة كنص صوفي ، يقوم بتوزيع تجربته على خريطة النص)²⁴

ومن هنا جاءت صعوبة الحكم على مضامين أقوال المتصوفة ، لأن لغتهم تكاد تكون لغة خاصة ، واصطلاحاتهم بالفعل لا تتعداهم إلى غيرهم من حيث مدلولاتها ، وإن كانت مشتركة مع غيرهم

يلامسها ، إنه بشكل أو بآخر يسعى الصوفي - بما عرف عنه من قيم الوسطية ونشر المحبة والتسامح وقبول الآخر - إلى تصحيح الأوضاع التي تعاني اضطرابا وانحرافا ، ويمكنه فعل ذلك بفضل الطاقات الأخلاقية والجمالية لمواجهة تحديات العصر ومواجهة الأزمات التي تكاد تعصف بالكثير من المجتمعات المعاصرة ، واقتراح حلول لواقع معقد ومتشابك .

بالرغم من كل هذا فقد وجهت إلى الصوفية العديد من الانتقادات وعلى جبهتين :

1. النقد من الداخل :

لم يستطع هذا الخطاب المرور والنفوذ إلى متلقيه ، بسبب اختلاف في صياغة الخطاب عما هو مألوف لدى أصحاب المعرفة الدينية ، لذلك واجهت هذا الخطاب فئات قوية مثل السلطة والفقهاء والمعتزلة... لأنه كان موجها ضدها سياسيا وإيديولوجيا ومصلحيا²²

وهذا شكل أزمة في الخطاب الصوفي ، ولهذا عد بعض الباحثين الحركات الصوفية على امتداد العصور الإسلامية نوعا من الثورة ، بمعنى أنها كانت تطرح الجديد في الفكر الديني (الرأي الآخر) وكذلك السياسي بالتبعية نتيجة احتوائها على الرؤى المغايرة والفلسفة الخاصة ومفهومها للجمال ، وارتباط الفن عندهم بفكرة الخلق العامة .

1-1-1. مازق التأويل :

حظي التأويل في المعرفة الصوفية بمجال تداولي واسع النطاق ، لارتباطه بالخطاب القرآني المعجز وبمساحات الجاز الممتدة في مفاصل البيان العربي ، وكان الداعي الأساسي إلى اعتماد التأويل عند المتصوفة هو هاجسهم وسعيهم إلى تأسيس التصوف تأسيسا شرعيا ، وإثبات هويته ضمن دائرة الشريعة الإسلامية ، وبهذا فإن التصوف ينطلق من ظاهر الشريعة ويتعمق

طغيان فاحش للبذخ والترف في أوساطها ، بعيدا عن قيم الدين الإسلامي السمحة ، وعن الوصف الدقيق لصاحب كتاب (أنس الفقير وعز الحقير) أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني ولإشباع الروحي الذي ينبغي أن يتجلى فيها . فالدين دعوة إلى التطهر والتقرب من الله العلي القدير ، والشعور بمراقبة الله في السر والعلن (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك) كما جاء في حديث جبريل المشهور ، وهو مقام الإحسان ، فالتصوف مدرسة الروح .

النقد من الخارج :

سيطرت الطرق الصوفية على المجتمعات العربية الإسلامية في فترات معينة ، بصورة تكاد تكون كاملة ، حتى غدا الدين في حس أفرد المجتمع هو التصوف ، وكان من نتاج ذلك أن صارت الشخصية المسلمة يتم إنتاجها من خلال هذه المنظومة الثقافية المسيطرة على مجتمعاتنا ، وهي في حقيقتها منظومة تمجد وتعلي من شأن الخرافة والأوهام والأساطير ، وتمثلت هذه السلبات في :

1-1. الاعتماد على المعرفة اللدنية :

فقد حلت المعرفة الشخصية محل المعرفة القائمة على الكتاب والسنة ، في المعتقدات والأفكار والممارسات الصوفية على حد سواء ، وقد خص ابن الجوزي أكثر من نصف كتابه (تلبس إبليس) بنقد المتصوفة ، مؤكدا تجلي الباطل في صورة الحق في معتقداتهم ، واشتمال مؤلفات الصوفية على أحاديث ضعيفة أو موضوعة .

1-2. إلغاء إرادة الإنسان :

كثيرا ما نعت المتصوفة من قبل خصومهم بأنهم سلبيون ، عطلوا دورهم في بناء الحياة وفي خدمة الناس

من حيث ألفاظها ، ومن الوقائع عن الافتراق في هذا المضمار اللغوي ما جرى للصوفي أبي العباس بن عطاء عندما سأله أحد المتكلمين : (مبالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين ، وخرجتم عن اللسان المعتاد ، هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعوار المذهب ؟ فقال أبو العباس : ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا ، كيلا يشربها غير طائفتنا)²⁵

3-1 التهافت على استغلال الدين :

كثير من الحركات الصوفية تتبنى قاعدة أن السياسة تفسد الدين ، غير أن الحقيقة تأبى ذلك إذا انخرطت إلى جانب السياسيين في صناعة القرار ، لكن بعيدا عن آليات الديمقراطية وفلسفة الأحزاب .

فشاطها المباشر والسري أحيانا كان سياسيا وظل كذلك ، وبقيت مرتبطة بالنظام الحاكم الذي يوفر لها الدعم المادي والمالي ، ويحول لها ممارسة طقوسها دون مضايقات أمنية حتى يلقي الدعم من طرف شيخ الطريقة من أجل مجابهة الخصوم السياسيين .

فكثير من الزوايا في نظر خصومها ، كان منشؤها لأغراض مصلحة وأطماع شخصية باسم الدين ، ولعل فترة الاستعمار رفعت الحجاب عن الكثير مما كان مستورا بغطاء الدين (وصراع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين معها خير دليل)

وسارع البعض وادعى تواطؤ قوى الاستعمار مع المتصوفة ، وهو ادعاء خطير ، تردد في كتابات كثيرة ، وفي أحاديث الناس أيضا في الوقت الحاضر ، ويحتاج إلى تمحيص كبير حتى لا يكون الإنسان ينطق بالتهم مهما كان مصدرها .

4-1. القيمة الروحية المغتالة :

إنه لا يعقل تصديق ما نعرفه عن الزوايا والطرق ، وما كتب عنها بأوامر فوقية وبأقلام مأجورة من زهد ونسك ، وأقل دليل ما نحياه حاليا من

والشروط التي وضعها العلماء ، وبتطور الفكر الديني في الإسلام اتخذ غلاة الشيعة من التأويل وسيلة لهدم الدين وتحريف أصوله وقواعده ، وجعلوه طريقاً ينتهي إلى إسقاط التكاليف الدينية ، واستحلال المحرمات وادعاء النبوة ، والخلط بين عقائد الإسلام وعناصر الفكر الأجنبي ، وصهر ذلك كله في مزيج ديني فلسفي عجيب ، وبلغ الأمر غايته ومنتهاه عند فرق الإسماعيلية وجماعات إخوان الصفا والحلاجية ، الذين زعموا أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة ، فهو دواء النفوس المريضة الضعيفة ، أما العقول القوية فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة ، وكان الحلاج يقول : (ستر الله عنك ظاهر الشريعة ، وكشف لك حقيقة الكفر ، فإن ظاهر الشريعة كفر خفي ، وحقيقة الكفر معرفة جليلة)²⁷

وكان الصوفي يرى أن من حقه أن يتخطى كافة النواميس ، وأن يخرج عن العرف الاجتماعي ، وعلى ما يسمى بالخير والشر ، وقدوتهم في هذا (البوجا) وبعض الغنوصيين من اليهود والنصارى ، فالبرهما يقول عن نفسه : (في اللحظة التي تتجلى أو تنبعث في نفسي ، حيث أصبح متحداً مع براهما لا أكون مكلفاً بعمل أو فريضة)²⁸

يلتقي التصوف مع هذه الديانة (براهما) في مبدأ تعذيب النفس وقهرها ، لكي تدخل مرحلة الفناء ، وعقد بعض المستشرقين مقاربات بين الديانة البراهمية ونظرية وحدة الوجود ومظاهر الالتقاء بينهما ، ولهذا انصب الهجوم على الصوفية قديماً وحديثاً في الغالب على هذه الجوانب التي يلتقي فيها التصوف الإسلامي بهذه الديانات ، واعتبر المهاجمون الصوفية غلاة أفسدوا الدين ، وأدخلوا إليه ما ليس منه ، لهذا كان التكفير والمحاکمات .

ويمكن حصر أهم الاختلافات التي وقعت بين الصوفية وغيرهم من الفرق الإسلامية في النقاط التالية :

، وهذا الطعن قد يكون في بعض الأزمنة وجيهاً باعتبار ما ، لكن الصوفية في العمق وعندما يتدبر المرء شؤنهم يجدهم مسرعين لخدمة الناس خدمة إيجابية ، وذلك بتخليق الحياة العامة ، الأمر الذي عجزت عنه كثير من البرامج الإصلاحية

كان ذلك عندما انقلبت الزوايا والطرق إلى معقل لبناء عقلية التواكل ، بعزوف أهل الزوايا عن العمل واعتمادهم على الخوارق والكرامات ، فقد استعمل هؤلاء الأدعياء كل الوسائل لاستغلال العامة ، بنسخ كتب السحر والشعوذة ، وكأن المجتمعات قد أصيبت بضربة عنيفة أذهلت العقول ، وحولت أفرادها إلى دراويش ، لا يملكون سوى الهذيان الصادر عن الفعل غير الإرادي (غير الواعي) في سعي للخلاص من الإحباطات والفشل في تغيير الواقع . فنشروا فكرة إلغاء الذات في ملكوت الله ، مما أوقع المسلم في حقل من النشوة ، فتوقف تطوره الفكري ، واستشرت عقلية التوسل بطريقة صارخة بعيدة عن مبادئ الإسلام ، ومن يتأمل ثنائية الشيخ / المريد حيث تبلغ هذه البنية الروحية وصلة التأدب بينهما صوراً متطرفة فيها التجاوز على عرف الدين وحدوده ، هذه الثقافة ساهمت بشكل كبير في ركود الإنسان بين الخرافة والتقليد ، ومنعت من تواصله بشكل إيجابي مع محيطه الكوني والإنساني ، وقد يسلم المريد الأمر لشيخه ولا يعترض عليه حتى ولو أتى بأمر منكر ، يقول القشيري في اعتدال وهو يشير إلى العلاقة التي ينبغي أن تسود بين الشيخ والمريد : (ولا ينبغي للمريد أن يعتقد العصمة في المشايخ ، بل الواجب عليه أن يذره وأحوالهم ، فيحسن الظن بهم ، ويراعي مع الله حده ، فيما يتوجه إليه من الأمر والعلم)²⁶

3-1 . التحلل من الواجبات الشرعية :

كان التأويل يلتزم بقواعد اللغة ودليل العقل

الاختلاف على المستوى التشريعي :

اتخذ هذا الخلاف أشكالا عدة منها :
الانقطاع والعزلة والخلوة - تفضيل العزوبة على الزواج - ترك الكسب وعدم الأخذ بالأسباب الاجتماعية والتي هي ضرورة دينية لا يتركها إلا متهور - شغل الصوفية بالسماع والرقص والإنشاد ...

الاختلاف على المستوى الدلالي :

يختلف الصوفية الفقهاء في اعتبارهم لمراتب الدين ، فهم يؤمنون بأن الدين الإسلامي درجات : العلم اللدني - الظاهر والباطن - الأحوال والمقامات - البركات والكرامات ...

الاختلاف على المستوى المعرفي :

فالصوفية باستعمالهم للرمز والإشارة ، والبحث عن العلوم الإلهية يسلكون عموما منهج التأويل .

نحمل القول أن هذا الاختلاف بين مؤيد ومعارض للتصوف انعكس على خلاصات الطائفتين :

- القائلون بإيجابية التصوف : يعتبرونه منهجا روحيا يصقل الذات ويطهر النفس ويعمق العقيدة ، وهو الملاذ الوحيد للبشرية والمنقذ لها مما تعانيه من تخمة حضارية غلبت المادة على الروح .

- أما القائلون بسلبيته فيحملونه مسؤولية ما آلت إليه الأمة الإسلامية من تأخر وانحطاط ، وذلك لما يدعو إليه من عزلة وانطوائية وتواكليه ، وكان سببا في دخول الاستعمار إلى البلاد الإسلامية ، لأنه استخدم أقطاب التصوف لتيسير الدخول ، بتنويم العامة وإبعادهم عن واقعهم ، ولذا حاربتهم الحركات الإصلاحية في كافة أنحاء العالم الإسلامي .

نؤكد في هذا البحث أن التجربة الصوفية من منطلق تأثيرها الروحي ، تساهم في تحصين المجتمع من العنف والكرهية ، وإصلاحه عبر المدخل الأخلاقي والتربوي

، وإصلاح الفساد الاجتماعي بمختلف مظهراته ، فهو جسر نحو التسامح والمحبة ، وعليه نرجو :

وتأسيسا على ما سبق نرى أنه من الضروري في الظرف الحالي وفي المحيط الدولي ، أن تجدد الصوفية رؤيتها وآلياتها في جميع المجالات الروحية والعلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية ... وإعادة النظر في الإعلام الصوفي المقروء والمسموع والمرئي وغيرها من الوسائل ، والمطالبة بإدراج وحدة التصوف في برامج التعليم وخاصة في المرحلة الجامعية ، والعمل على تغيير الصورة النمطية السلبية التي ترمي التصوف بالتقوقع على الذات ، من أجل الانفتاح على الواقع والمجتمع لتحقيق الطموحات .

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- سورة هود الآيتان : 118- 119 والآيات الأخرى التي تشير إلى الاختلاف واردة في السور التالية : المؤمنون الآية 80 الروم الآية 22 البقرة الآية 164 آل عمران الآية 190 يونس الآية 6 الجاثية الآية 5 النساء الآية 82
- 2- سورة البقرة الآية : 251
- 3- أدونيس (أحمد علي سعيد) : الصوفية والسريالية دار الساقى بيروت ط3 2006 ص 254
- 4- علي حرب : خطاب الهوية سيرة فكرية دار الكنوز الأدبية 1996 ص 43

- 5- ابن عربي (محي الدين) : الفتوحات المكية ج4 دار صادر بيروت د.ت ص 304
- 6- الشعراني (عبد الوهاب) : لطائف المنن والأخلاق منشورات دار الحكمة دمشق 1985 ص 125
- 7- علي حرب : التأويل والحقيقة قراءة تأويلية في الثقافة العربية دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 2007 ص 101
- 8- عبد القادر الجزائري (الأمير) : المواقف ج1 طبعة بيروت د.ت ص 9
- 9- الجيلي (عبد الكريم) : الإنسان الكامل دار الفكر بيروت ط4 1975 ص 1-8
- 10- ابن عربي (محي الدين) : شرح فصوص الحكم محمد محمود الغراب الناشر المؤلف 1986 ص 53
- 11- اسماعيل بن محمد العجلوني : كشف الخفاء ومزيل الالتباس ج2 تعليق أحمد القلاش مؤسسة الرسالة بيروت ط4 1985 ص 169
- 12- ابن عربي : شرح فصوص الحكم ص 273
- 13- ابن عربي : الفتوحات المكية ج1 ص 47-48
- 14- سورة آل عمران : الآية 19
- 15- ابن عربي : الفتوحات المكية ج3 ص 132
- 16- ابن عربي : ترجمان الأشواق طبعة بيروت 1964 ص 43-44
- 17- جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام دار الترجمة العربية القاهرة ط2 1959
- 18- الأشعري (أبو الحسن) مقالات الإسلاميين تح/
- محمد محي الدين دار الحداثة بيروت 1984 ص 438
- 19- ينظر ر. نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه تر/ أبو العلاء عفيفي ط 1947 القاهرة ص 66
- 20- سورة ق الآية 22
- 21- ينظر عبد السلام العرميني : الصوفي والآخر شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء ط1 2000 ص 22 وما بعدها
- 22- محمد مفتاح : دينامية النص المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط2 1990 ص 133
- 23- عادل محمود بدر : التأويل الرمزي للشطحات الصوفية دار مصر المحروسة القاهرة ط 1 2010 ص 12
- 24- شريف هزاع شريف : نقد/تصوف النص . الخطاب التفكيك ، مؤسسة الانتشار العربي بيروت ط1 2008 ص 35
- 25- الكلاباذي (محمد بن إسحاق) : التعرف لمذهب أهل التصوف ، طبعة بيروت 1980 ص 88
- 26- القشيري (عبد الكريم) : الرسالة القشيرية في علم التصوف تح/ معروف رزيق دار الجيل بيروت ط2 د.ت ص 361-362
- 27- ل . ماسينيون : ديوان الحلاج ص 63
- 28- عرفان عبد الحميد فتاح : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها دار الجيل بيروت ط1 1993 ص 89